دور المراهقة

ومنطق التربية المصرية إزاءه

للأستاذ صلاح الدين الشريف

كانت مناهج التربية الغربية غير معنية بدراسة غرائز الطفل أو تعهدها بأى لون من التهذيب العملى المبنى على حقائق العلم وثمرات التجارب . وكان حتما أن يقودها هذا المنطق المعوج إلى قصر عنايتها على المظاهر السطحية والقشور المزيفة ، بعد إذ أغفلت أمر الغرائز وعجز أساليبها التقليدى العتيق عن فهم ما قد يكون لها من آثار بعيدة فى تكييف منازع الطفل وميوله . ولعل الذى ساعد ذلك المنهج القديم على هذا الإغفال الشنيع ، أن علم النفس من وجهتيه النظرية والتطبيقية ، لم يكن قد جاز بعد مراحل تطوره ، ومن ثمة لم يكن قد وصل إلى مركزه الحالى الذى هيأ له أن يفرض قواعده وأصوله على برامج التربية فى الغرب ، بل أن تتداخل عوامله فى شتى مناحى الحياة ، تغير فيها وتبدل .

على أن الانقلابات الفكرية والثورات الاجتماعية التى تمخضت عنها عقلية القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، أتاحت لأبناء القرن العشرين أن يعالجوا إدخال السيكولوجيا فى مناهج التربية العصرى ؛ وأن يفرضوا فكرة "المعمل النفسانى" على مدارس العلم ومعاهده فرضا . وهكذا انتظمت تلك السلسلة المستطيلة من العلماء الأفذاذ والفلاسفة الملهمين ، مبتدأة من جان جاك روسو فى كتابه الخالد " أميل " ثم جوهان هنريخ بستالتزى فى رسالته الرائعة "كيف تربى جرترود أطفالها" الى عصر فرويد وأدلر وماري ستوبس وغيرهم من علماء هذا القرن الذى يسير فى معارفه ومخترعاته بسرعة "الطوربيد" ! .

ومن ثمة لم يكن بدعا أن نسمع بتسابق المعاهد والجامعات ، فى كثير من بقاع أوروبا وأميركا ، فى اختصاص طلابها بدروس خاصة بالعلائق الجنسية ودراسة وظائف الجنس فى هدى من تصرفه الغريزى ؛ وهى دراسة ضرورية قيمة تجاوزها حقائق العلم وتخلصها من كثير من الشوائب والأوهام التى تدرج مع اطراد الطفولة فى نموها ، وتذكيها طبيعة دور المراهقة المسيطرة على من يجوزها حتى سن الخامسة والعشرين ، وهى سن التفتح والازدهار .

هذا عرض سريع لبعض المراحل التى قطعها موضوع سيكولوجى واجتماعى خطير ، لقى من الغربيين ماهو أهل له من تقدير وعناية ، فماذا بذلناه بدورنا له ، نحن الذين نتبع خطوات الغرب وطفراته جميعا ، حتى فى شذوذها وجنونها ؟ ! .

اصطلح علماء التربية على تسمية الفترة الزمنية التي يجوزها الفرد ابتداء من سن الثانية عشرة حتى سن الخامسة والعشرين ؛ بمرحلة الطفولة الأخيرة ، وفيها يكاد يولد الطفل ميلادا جديدا تنقلب فيه أفكاره العقلية وميوله العاطفية وتركيبه الجثمانى انقلابا كبيرا له آثاره العميقة فى تكييف سلوكه ، بله تلوين شخصيته بحلة ؛ فهو يبدأ فى إحساسه بنضجه الاخذ فى التكامل حتى يبلغ حده فى نهاية هذا الدور ، ولعل إحساسه المتزايد بهذا النضج المتدرج يدفعه الى ألوان من الأثرة وفرط الحساسية وسرعة الاستجابة للمؤثرات العاطفية والانفعال بسلوك الآخرين حياله ، ولاسيما سلوك الجنس الآخر حتى ليدفعه هذا السلوك دفعا غريزيا الى التأدب المتهيب والتظرف الخجول فى حضرته عند أول تفتحه الجنسى الذى يهفو به تدريجا نحو التعلق بالجنس الآخر ، إلا من شذ على هذا القياس وخرج عنه لانحراف أصيل فى الفطرة . والطفل فى هذه السن أيضا متقد الخيال متفتح الملكات شديد حب الاستطلاع يترع الى فرض شخصيته الناشئة على من حوله من أناس وأشياء فرضا ملحا قد يدعو إلى الضحك أحيانا ! .

وفى هذه السن الخطرة التى يحرص فيها المراهق على توديع خيالات الطفولة الأولى وعبثها اللاهى ، تبدأ أسباب الكبت ودواعيه فى غزو نفسه الحساسة القلقة بضروب من الأمراض النفسية والعقد العصبية التى قد لا تظهر لنا أول وهلة ، لحرص المراهق على سترها وإخفائها ، إلا بعد الكشف والفحص — وهو فى هذا الدور الدقيق يتلفت فى طلب الناصح الذى يكاشفه ويعاطفه ويملك عليه قياد نفسه بالأسلوب الذى يرتاح إليه فى مثل هذه السن المليئة بالغموض والقلق . وعندما يفتقد مثل هذا الناصح الهادى ، تصبح نفسه مرعى خصيبا لشتى الانفعالات الجامحة والمنازع الاسرة التى قد تقوده إلى لون من السوداء يردها العلامة سيجموند فرويد إلى بدء نشاط غريزة الجنس فيه . وهو فى حاله هذه من القلق وعدم الاطمئنان إلى وضع بعينه ، يبدأ سخطه على المجتمع ، ويذكى فيه سخطه عليه حب الانتقام منه بالسخر من تقاليده والزراية بعاداته والهزؤ بما اصطلح عليه من فضائل ومثل يحيطها بهالات من الجلال والقداسة . وقد يضطره خوف الخروج على مصطلحات هذا المجتمع إلى لون من اضطراب الشخصية ، أو بمعنى أدق ازدواجها ، فهو يظهر لهذا العالم الخارجى الذى يكتنفه من كل جانب بمظهر غير الذى يتكشف به لنفسه عندما ينطوى عليها ويعيش حالم النزعة خيالى الميول فى ظلماتها ! ومن ثمة هذا التنقل السريع فى حالات النفس لا يجرى على قياس ولا يأخذ بمنطق ، فإنك لتراه هذه الساعة فى مثل صفاء الجدول الرقراق لما ينطبع على أساريره المنبسطة من أمارات الارتياح والسرور والفرحة ، شأن المقبل على الحياة بنفس راغبة فيها ، متحمسة إلى النهل من متعها ولذاتها ، ثم لا يلبث أن ينكفئ إذ يعتوره طور يناقض تماما ما كان عليه منذ لحظات ، يخونه فيه

مراحه وتبسطه ، ويخلف له صورة حزينة من الانقباض والتجهم تدفع به الى ايثار الاعتزال والاحتجاز ! وطبيعى أن تتعدى هذه النقلات المباغتة مواطن الشعور ومراكز الحس إلى معتقدات الذهن وصور التفكير وانبعاثاته . وليس يمنع هذا كله أن تكون هذه الحالات ظاهرة الآثار ظهورا شديدا فى بعض الأفراد ، غامضة بعض الغموض حتى لا تبين لغير ذى العين النافذة فى بعضهم الآخر ، فإن هذا يتفاوت فى مدى الأعراض وعمق الانفعالات ، وأما طبيعة الاستعداد لهذا كله والانفعال بهذا كله فواحدة لا تتغير طيلة هذا الدور الدقيق .

ولعل الذى يجعل هذا الدور شاقا على المراهق وعسيرا هو كثرة هذه الانقلابات المتوالية فى عنف عليه ، تبعا لما يطرأ على جسمه من تغيرات بيولوجية وفسيولوجية ، وما ينتاب عقليته من تطورات يهيئها له ما يحيطه من أوساط متباينة فى منزل الأسرة ومعهد الدراسة وبيئة المجتمع الفسيحة . وكل هذه الأوساط مليئة طبعا بإيحاءاتها ومثلها ، مترعة بفضائلها ورذائلها ، مؤثرة فى نظر المراهق إلى نفسه وإلى الحياة إيجابا وسلبا ، وهذا ما يجعل أعباء هذا الدور ثقيلة الوقر ، لا على المراهق وحده ، بل على كل من يتصدى له بصقل أو تربية طيلة هذا الدور الخطير ، ولاسيما فى الخطوات الأولى منه على وجه أصح .

ولعل من نافلة القول أن نؤكد أن حياة الطفل المستقبلة متوقفة حتما على لون التهذيب الاجتماعى الذى تساس به حياته هذه حتى ينتهى من دور المراهقة ، وهو دور التفتح والازدهار والتحول ، ليستقبل حياة الرجولة القوية العاملة . ورغم هذه الخطورة البينة التى تتكشف لنا عند التصدى لمرحلة المراهقة ، فإن مناهج التربية المصرية ، مع الأسف ، جد فقيرة فى أساليب التهذيب المنسجم مع طبيعة هذا الدور ، بل إن إهمالها لهذه المسألة الاجتماعية الكبرى التى اعترف الغرب منذ أمد طويل بدقتها وخطورتها قد أباح لجمهرة الآباء المصريين فضلا عن سواد المربين عندنا أن ينظروا إلى كل هذه التقلبات والتغيرات نظرة سطحية عابرة لا يفهمون منها غير أن الطفل سائر إلى سن البلوغ أو أنه بلغه فعلا ! وأما أنهم يأخذون بيد الطفل المسكين ليعينوه على اجتياز مراحل هذا الدور سليم الجسم طاهر الخلق فاضل العادات فهذا فى زعمهم ، ماليس من وظيفتهم أو ما ليس فى طوقهم أن يفعلوه؟

ولا نكران فى أن أقوى الغرائز التى يتم نضجها فى مطالع هذا الدور هى الغريزة الجنسية وهى أعنف غرائز الطفل وأشدها وقت المراهقة تحكما فيه وإملاء عليه ، فهى إن لم تجد فى بداءة أمرها الوازع التربيى والضابط التهذيبى ، دفعت بالمراهق لامحالة إلى الاستهتار والاستباحة ، وعندهما تموت كل المعانى الشريفة فى نفسه ، ومن ثم يصبح كأسير مستضعف لهذه الغريزة يؤمن بأنها مجرد أداة للاستمتاع والتفريج ، ووسيلة لإشباع الميول

الشهوية الجامحة . ولقد يثقل عليه أن يفهم أنها وسيلة حفظ النوع وتكوين الأسرة لبناء مجتمع غني بعائلاته قوي بأفراده، وهكذا تتخاذل عوامل الإبداع والبناء في شخصيته، وتغلب عليها جميعا حيوانية سرة ترد الفرد أجيالا إلى الوراء إلى إنسان الغابات والأدغال .

فما الذي يدعو جمهرة الآباء والمربين إلى أن يلسافوا بطلوعهم إلى تهيئة هـذا المصير لأبنائهم الأغرار . وما الذي يحول بينهم وبين أحد الأبناء بنوع من التهذيب الصريح الذي يكشف لهم عن سر الغرائز ووظائفها ؟ ! .

إن القدوة المثلى تتراءى للطفل دائما في مراحه ومغداه ؛ ويحس بها قوية الأثر دفاقة الوحي إحساسه بشيء يلمسه أوله عليه سلطان، فهي حقا من أجدى المسائل المعينة على تحليته منذ نعومة أظفاره بكثير من مكارم الأخلاق ، فعلينا إذن أن نكون لأطفالنا قدوة حسنة في كل ما نريد أن يتحلوا به من فضائل وعادات .

انظر مثلا إلى حال ذلك الأب الذي مات ضميره وتبلد إحساسه ، فلم يرجاحا عليه أن يستبيح في أخلاقه أو أن يغرق في سكرة نشوته الضالة حتى لايتورع عن مقارفه المنكر على مشهد من أولاده الصغار ، ناسيا أو متناسيا في غمرة إثمه أن لهم أعينا رقيبة وفطرا مقلدة تنفعل في سرعة البرق بكل مؤثر خارجي يأتيها عن طريق الحواس المتفتحة ، فتندفع إلى تمثيله واستعادته بحذافيره قولا وعملا بصورة آلية مجردة من ضابط الإرادة القوية أو وحي التفكير السليم ، وإنهم والله لمعذورون ! .

ولعل أفضل أساليب التربية الاجتماعية اللائق اتخاذها في صدد تنظيم هذه الناحية وملء هذا الفراغ الذي سبقنا الغربيون إلى ملئه والعناية به منذ أجيال ، هو علاج مواطن النقص في منهج التربية في كل من البيت والمدرسة ومحاولة إغنائهما جهد الطاقة بما ينقصهما من أساليب العلاج .

فعندنا مثلا نواح كثيرة لم تتأصل بعد في حياتنا الاجتماعية الناشئة ؛ وهي في الواقع عميقة التأثير على قلة ما تلقاه من احتفال وعناية ، وما علينا إلا أن نجعل من تنظيم هذه النواحي شواغل وسلويات تجدي على أبنائنا وتملك عليهم مناحي نشاطهم الحيوي وتصرفهم عن الاتجاه به إلى مواطن السوء أو مراودة ذلك اللهو العابث يهيئه لهم سأم الفراغ وحياة التبطل والعطالة .

وليس أفضل من تربية غريزة حب الاستطلاع التي تدرج مع الطفل في مدارج نموه ، والتوسل بها لغرس ملكة الاطلاع وشغف البحث والقراءة . واختيار مواضيع القراءة يحتاج إلى إشراف المربي لخطورته ودقته ، فليس كل ما تقذف به المطابع من قصص ساقطة ومجلات مسفة وكتب حشوها السخف والتفاهة . أو ما يرد إلينا من نفايات المدنية الغربية

بايحاءاته الآثمة وأفكاره الداعرة المستخفية وراء ستار براق من الأدب المكشوف — ليس هذا كله أو مايحذو حذوه بصالح لأن يكون الخلاصة المبرأة من الشوائب أو الزبدة الخالية من كل مايضر ويفسد ، حتى نمهد له السبيل إلى عقول أبنائنا دون تحرج أو خشية .

ولا يفوتنا فى هذا الموطن أن نأسف الأسف كله على فقر المكتبة العربية فى المطبوعات التى تتناسب مع أعمار الصبية وتتفاوت درجتها فى أسلوب العرض ومنطق التفكير بتفاوت الأسنان بين الثانية عشرة والخامسة والعشرين ؛ فطبيعى ألا يقول عاقل بجواز أن يقرأ من لم يتعد الثالث عشر ربيعا مثلا نفس ما يقرأه شاب فى الخامسة والعشرين لاختلاف العقلية وتفاوت القدرة على الهضم والإفادة تبعا لذلك . ونحن إذ نذكر فى المكتبة الغربية فى هذه الناحية حتى يتمتع الأولاد هنالك منذ سن الطفولة الباكرة حتى اجتياز مرحلة المراهقة بما تهيئه لهم المطابع الراقية يزيد أسفنا ويشتد حقا ، فهنالك يجد كل قارئ ما يناسب سنه من المطبوعات ، ومن ثم تجدى عليه القراءة بصورة تحببه فيها ، لأنها ترفهه وتشوقه وتأخذ بيده الى آفاق رحيبة تتراءى له فيها الأفكار الطاهرة الجميلة والإيحاءات الطيبة المهذبة ، وليس من ينكر اليوم أثر الإيحاء فى حياة الناس ولا سيما الصغار . وهنا يجدر بنا أن نقول إن مسألة الرياضة البدنية ضرورة من ضرورات الجسم الذى يبدأ فى هذه السن فى نموه السريع وممارسة هذه الرياضة ، وإن لم يثبت بعد ثبوتا قاطعا أثرها الفعال فى التلطيف من حدة الغريزة الجنسية فى هذا الدور ، لا تخلو من فوائد ملموسة ولا سيما إذا اقترنت بالرياضة العقلية المنظمة .

وتعتقد الدكتورة مارى ستوبس أن الألعاب الرياضية لا تساعد الطفل على ضبط ميوله الجنسية على عكس الأعمال العقلية التى تراها الوسيلة الوحيدة الى ذلك ؛ وتضرب لنا مثلا فى كتابها المشهور "الغريزة الجنسية والأطفال" للتدليل على هذه الفكرة بما يشاهد عادة من فقدان التوازن بين طبقات المجتمع فيما يتعلق بالتناسل ، فالعامل الذى يشتغل بيديه ولا يستخدم عقله إلا قليلا نراه ينسل ذرية أكثر من ذلك الذى يشتغل بعقله ، فاقتران الألعاب الرياضية إذن بالعمل العقلى ضرورى فى جذب اهتمام الطفل وشغله عن التفكير فى المسائل الجنسية وإن كنا لا ننكر أن رياضة البدن تعلم الطفل فضيلة ضبط النفس وقوة الإرادة .

ولا يخفى أن تدريب الطفل على اتخاذ هواية له يشغل بها نفسه فى أوقات فراغه ، وأوقات الفراغ هى المشكلة الكبرى فى حياة الأطفال ، مما يعينه على التسامى بغريزته الحيوانية إلى نواح من النشاط الفنى تنصرف حيويته إلى العكوف عليها وإتقانها ، فالفنون الجميلة من تصوير ورسم ونحت وتمثيل وموسيقى وجمع الكتب والصور التاريخية القيمة وطوابع البريد وفصائل الحشرات الجميلة وتربية الدواجن وتنسيق الحدائق الصغيرة وزراعة الزهور ومعرفة نبذ مختصرة

عن أدوار حياتها وفصائلها إلى غير ذلك من ألوان الهوايات مدعاة لعناية الطفل بتنظيم أوقات فراغه جميعا وشغلها بمثل هذه السلويات المجدية فى حياته ومستقبله .

وثمة جانب آخر يدعو الآباء والمربين إلى العناية بأمره وإعارته جانبا كبيرا من اهتمامهم ورقابتهم ، وأعنى به اختيار الزملاء والإخوان لأطفالهم ، فعشير السوء يعدى كالمرض سواء بسواء ويستدرج السذج الأبرياء من الأطفال إلى مواطن ما كانوا ليلجوها لولا تعرفهم إلى مثل هؤلاء الزملاء من أعوان الشيطان ، وكم من الآباء قد فسد أبناؤهم وتشزوا على النظام والطاعة بسبب إخوان السوء هؤلاء وغفلة الآباء عن هذا الأمر الدقيق .

ولعل مصدر التعرف إلى هؤلاء الشياطين الصغار يتجلى لنا فى تلك الأندية الكثيرة التى تنشأ على أسس خلابة واهية سرعان ما تتداعى مخلفة بين روادها رذائل تسعى وعادات قبيحة تختفى معالمها فى جسومهم وعقولهم ، ولغفلة كثير من الآباء عن هذه الأمور لا يتدخلون إلا بعد فوات الأوان ، وليس إطلاق الإباحة فى غشيان دور الخيالة والمسرح بالأمر المأمون العاقبة أو حتى بالمقبول عقلا ولاسيما فى مطالع هذه السن ، فطبيعى أن هنالك من الروايات مالا يجوز لذوى أسنان معينة أن يشاهدوه أو تتفتح له حواسهم وتنتبه إليه غرائزهم المستكنة ، وأخرى مما يستحسن مشاهدتها مع الآباء أنفسهم وفى صحبتهم ، ولكننا ، حكومة وشعبا ، لم ننظم بعد هذا الموضوع الخطير .

إن جانبا كبيرا من اللوم يقع على وزارة المعارف ، ويختص ببقية هذا اللوم جمهور الآباء عندنا ، فلو أن هؤلاء وأولئك اتخذوا أسوبا معقولا من التربية نظموا به أوقات أبنائهم ورقبوا خلاله أعمالهم وغرسوا فيهم سلويات وهوايات راقية ، وأخذوا بيدهم فى تفريج كربهم النفسية ومعالجة المسائل الجنسية التى تقلق بالهم وتقض مضاجعهم وتنحرف بهم أحيرا فى غفلة من الآباء إلى ذلك الطريق المظلم لما كان ثمة تناقض كهذا الذى ذكرت طرفا منه ، ولما وقع أبناؤنا وفلذات أكبادنا وذخر مستقبلنا فى بحر من الشرور والفوضى لا أمد له ولا شاطئ . فهلا تعظنا وعملنا خيرا للوطن ولأبناء الوطن ؟ .

صلاح الدين الشريف
المحامى